جهود الدولة العثمانية فى تأمين الطريق البحرى من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين

- دراسة تاريخية تحليلية -

إعداد الدكتور

عايض بن خزّام الروقي

أستاذ مشارك التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة أم القرى – مكة المكرمة

المملكة العربية السعودية

جهود الدولة العثمانية فى تأمين الطريق البحرى من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين
ـ دراسة تاريخية تحليلية ـ

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، أما بعد :

فقد كان تاريخ الدولة العثمانية فى مراحله الأولى يمثل ملحمة جهادية صادقة ، خاض فيها سلاطين آل عثمان الجهاد الإسلامى فى أبهى صوره ، حيث خاض سلاطين الدولة العثمانية معارك حاسمة لنصرة دين الله والحفاظ على مقدسات الإسلام و مقدرات المسلمين ، وحافظوا على الثغور الإسلامية التى كانت عرضة للهجمات الأوروبية المستمرة ، وما لبث العثمانيون أن اجتازوا البحر ودخلوا غاليبولى [1] متخذين منها نقطة متقدمة لعملياتهم الحربية وفتوحاتهم المتتابعة داخل أوروبا ، وبسطوا

---

(١) غاليبولى – كليبولى : مدينة ذات موقع استراتيجى ، لها أهمية كبيرة فى المعارك الحربية ، إذ إنها تقع على ضفة مضيق الدردنيل – فى الجانب الأوروبى – وتبعد عن مدينة أدرنة حوالى مائة وأربعين كيلومتراً ، ولأن مضيق الدردنيل هو الممر الوحيد بين بحر مرمرة وبحار أوروبا فقد اكتسبت مدينة غاليبولى هذه الأهمية الاستراتيجية ، انظر : محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د. إحسان حقى ، هامش ١ ، ص ١٢٦– ١٢٧ ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م دار النفائس – بيروت .

سلطانهم على البلقان ، ونقلوا عاصمة دولتهم إلى أدرنة[١] ، فعظمت قوتهم وزادت انتصاراتهم وعلت مكانتهم .

وقد حقق بايزيد الأول بن مراد الأول (٧٩١-٨٠٥هـ/١٣٨٩-١٤٠٣م) انتصاره على الحملة الصليبية التى قادتها فرنسا والمجر فى أواخر القرن الثامن الهجرى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، والتى كانت سبباً لا يُنسى فى إطفاء حماس الفرنسيين لشن أية حملة صليبية قادمة للشرق الإسلامى ، وفرصة لقيام علاقات ديبلوماسية بين فرنسا والدولة العثمانية[٢] ، اتخذت لها مساراً خاصاً فى مجال العلاقات السياسية بين الدولتين .

إن الدولة العثمانية فى مراحلها التاريخية الأولى قد شكلت أنموذجاً إسلامياً فريداً ، حيث كان الجيش العثمانى لا يقاتل إلا وفى مقدمته السلطان ومعه شيخ الإسلام ، وكان هذا الجيش لا يقاتل إلا الكفار، أى أنه اتجه غرباً ، مُهدّداً أوروبا فى عقر دارها ، وفاتحاً للبلدان والأقاليم ، وناشراً للدين الإسلامى فى ربوع أوروبا النصرانية . من هنا برزت شخصية الدولة العثمانية ، وجيشها الإسلامى ومنهجها الجهادى ، حتى إنه بات معروفاً لدى دارسى التاريخ فى تلك المرحلة أن العثمانيين لا يحاربون إلا لهدف دينى صرف ، وهم يسعون لنشر راية الإسلام وإعلاء شأن المسلمين ، وقد وصفهم أحد المؤرخين العرب حينذاك بقوله : " ... وكانوا فى صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين ، وأشدّ من ذب عن الدين وأعظم من جاهد فى المشركين ، فلذلك اتسعت ممالكهم بما فتحه الله على أيديهم وأيدى نوابهم ، وملكوا أحسن المعمور من الأرض ودانت لهم الممالك فى الطول والعرض ، هذا مع عدم إغفالهم الأمر وحفظ النواحى والثغور وإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية ، وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين والتمسك فى الأحكام والوقائع

---

(١) محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة د.أحمد السعيد سليمان ، وقدم له د.أحمد عزت عبد الكريم ، ص١٨٠-١٨٢ ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ت.ن.

(٢) روبير مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعى ، ج١ ، ص٦٠-٦٩، ط١، ١٩٩٣م ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة .

بالقوانين والشرائع ، فتحصنت دولتهم وطالت مدتهم وهابتهم الملوك وانقاد لهم المالك والمملوك "[١].

من هنا كان استيلاء العثمانيين على جزء كبير من شرق أوروبا ، واجتيازهم البحر وإقامتهم فى غاليبولى عاملاً على تقوية بنيان الدولة ، وتأكد ذلك باعتناق كثير من الطبقة الأرستقراطية فى أوروبا للدين الإسلامى فى مراحل الفتوحات العثمانية الأولى لتلك الجهات[٢] ، وتحققت لهم الريادة حين فتحوا القسطنطينية - معقل الكنيسة الشرقية ومركز الدولة البيزنطية العتيد ، حيث تمكن سابع السلاطين العثمانيين السلطان محمد الثانى بن مراد الثانى (٨٥٥-٨٨٦هـ/١٤٥١-١٤٨١م) والمعروف فى التاريخ بالسلطان محمد الفاتح ، فى العشرين من جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ / الموافق ٢٩ مايو ١٤٥٣م من دخول المدينة بعد حصار طويل وملحمة تاريخية نادرة، وفتح المدينة للمسلمين وسماها إسلام بول - أى أرض الإسلام[٣] ، لتتحقق له المعجزة النبوية التى جاءت على لسان المصطفى ﷺ فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال :

" لَتُفْتَحنَّ القسطنطينيةُ ولنعم الأميرُ أميرها ولنعم الجيشُ ذلك الجيش"[٤] .

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ج١ ، ص٣٧-٣٨ ، دار الجيل بيروت ، د.ت.ن.

(٢) محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، المرجع السابق ، ص١٨٧-١٨٩ .

(٣) محمد بن أحمد بن إياس الحنفى : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، ج٢ ، ص٣١٦ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى : حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، ج٢ ، ص٤٥٣ تحقيق محمد كمال الدين عز الدين ، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، منشورات عالم الكتاب .

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ج٤ ، ص٢٣٥ .

السيد أحمد زينى دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ، ج٢ ، ص ١٢٨ ط ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م نشر مؤسسة الحلبى وشركاه - القاهرة .

يقول السلطان محمد الفاتح : " إننا لا نلقى بأنفسنا إلى المخاطر من أجل مدينة ، وإنمـــا فى سبيل الله عز وجل حتى إذا لقيناه يوم الحساب قدمنا إليه فخورين لا خجلين وبأيديـــنا سيوفنا التى حاربنا بها فى سبيله ، إن هذه السيوف التى نحملها ليست للزينة والتـــباهى وإنمـــا هى لنقاتل بها فى سبيل الله ، إن هذا العناء الذى نلاقيه كله فى سبيل الله"[١] ، لقد حقق السلطان العثمانى محمد الفاتح بفتح إسطنبول أملاً كبيراً طالما راود خـــيال المسلمين منذ الفتوحات الإسلامية الأولى ، فى الوقت الذى أدى هذا الفتح إلى ارتفاع مكانة الدولة العثمانية فى العالم الإسلامى ، وجعل منها القوة الإسلامية الواعدة التى يتطلع إليها المسلمون لرفع راية الجهاد وتحقيق الانتصارات وحماية البلاد الإسلامية ومقدراتـــهـــا .

بهذا الفتح المبين لمدينة القسطنطينية وضع العثمانيون أقدامهم فى مركز استراتيجى مهـــم فى مضيقى البوسفور والدردنيل وفى بحر مرمرة وبحر إيجة وهو ما سيجعل تقدم روســـيا أو إمـــبراطورية النمسا إلى الشرق الإسلامى أمراً مستحيلاً ومن دونه خَرْط القَـــتاد، وهـــو ما تحقق طوال تاريخ الدولة العثمانية فى عصر قوتها ، حيث أصبح لها النفوذ الكامل والسيطرة المطلقة على معظم طرق المواصلات البرية والبحرية المهمة بين الشرق والغرب.

ونظـــر الأوروبيون إلى الفتوحات العثمانية فى أوروبا بدءاً من فتح إسطنبول وما أعقـــبه مـــن فتوحات عسكرية حاسمة على أنها فتوحات إسلامية وكارثة كبرى على أوروبـــا لا يماثـــلها أية كارثة ، ووقر فى أذهانهم أن أى نصر عسكرى تحققه الدولة العثمانـــية إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للنصرانية[٢] ، ليصل الأمر بهؤلاء القوم فى نهاية المطـــاف إلى اعتبار أن جذور المسألة الشرقية هى وجود الأتراك العثمانيين فى أوروبا

---

(١) زيـــاد أبو غنيمة : جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص٣٨-٣٩، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـــ/١٩٨٣م ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .

(٢) د.عبد العزيز محمد الناوى: الدولة العثمانية ،دولة إسلامية مفترى عليها، ج١، ص ١٤ مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠م

واستيلاؤهم على مدينة القسطنطينية ، وسيطرتهم كمسلمين أسياد على شعوب مسيحية ، يقول إدوارد دريو Driault : " إن المسألة الشرقية هى مشكلة القضاء على قوة الإسلام السياسية "[١] ، وهذا يعنى أن العامل الدينى كان من أهم عوامل المسألة الشرقية ، وبالتالى أصبحت كراهية العثمانيين وبغضهم عسكرياً وعرقياً ودينياً من أهم دوافع المسألة الشرقية .

ولقد كان فتح القسطنطينية بداية مباركة وفألَ خيرٍ على المسلمين ، لتقوم الدولة العثمانية المسلمة منذ ذلك التاريخ بجهود جهادية لتأمين طريق الحجاج البحرى من عاصمة الدولة – إسطنبول – إلى الأماكن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ولاسيما فى مياه البحر المتوسط الذى تنتشر على سواحله وفى مياهه القوة النصرانية فى داخل الجزر وعلى السواحل .

من هنا ، كانت علاقات العثمانيين مع القوتين البحريتين : إمارتى جنوة والبندقية ساخنة بصفة تكاد تكون مستمرة ، لكن أمام بروز القوة العثمانية عقدت البندقية صلحاً مع السلطان محمد الفاتح تعهدت فيه بمساعدته بأسطول بحرى مكوّن من مائة سفينة إذا هوجمت دولته من أية دولة أخرى[٢] .

وكان للحرمين الشريفين وأهلهما مكانة خاصة عند سلاطين الدولة العثمانية قبل هذا الفتح المبين، حيث أرسل السلطان بايزيد الأول بن مراد الأول (٧٩١-٨٠٥هـ/ ١٣٨٩-١٤٠٣م) إلى الحرمين الشريفين ولأول مرة مساعدات مالية من عاصمة الدولة أدرنة مقدارها ثمانون ألف ٨٠٠٠٠ ذهب[٣] ، وقد عُرفت هذه المساعدات

---

(١) زين نور الدين زين: الصراع الدولى فى الشرق الأوسط وولادة دولتى سوريا ولبنان ، ص٢٢- ٢٣ ، الطبعة الثانية ، دار النهار للنشر – بيروت ١٩٧٧م .

(٢) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح ، ص١٦٤-١٦٩ ، منشورات الفاخرية بالرياض ، ب.ت.ن .

(٣) محمد أمين المكى : الآثار المبرورة والمشكورة لسلاطين آل عثمان فى الحرمين الشريفين ، ص١٩ ، إستانبول ، مطبعة عثمانية ، ١٣١٨هـ .

المالية فيما بعد باسم "الصرة"[١] ، وفى عهد السلطان محمد جلبى (٨١٦-٨٢٤ هـ/١٤٠٣-١٤٢١م) استمرت هذه المساعدات المالية وأوقفت الأوقاف الكثيرة على الحرمين الشريفين ، واستمر سلاطين الدولة العثمانية منذ ذلك الوقت فى إرسال الصرة الهمايونية سنوياً ، والحفاظ على المساعدات المالية المستمرة ، لأهل الحرمين الشريفين والمقيمين فيها[٢] .

وقد استمر حرص السلاطين العثمانيين على أداء هذه المهمة وإنجازها على أكمل وجه ، بل والحفاظ على سلامة الحج والحجاج فى سفرهم وإقامتهم ، حيث أكدت الوثائق العثمانية هذا المنهج الثابت فى سياسة الدولة العثمانية ، فقد ورد فى الحكم السلطانى المرسل إلى والى مصر وقاضيها والولاة والأمناء فى الولايات والسناجق العثمانية برقم ٣٤٨ وتاريخ ذى الحجة سنة ١١٠٣هـ ما نصه :

" إن من لوازم ذمة وهمة سلطان الزمان الحفاظ على ذهاب وعودة من شد العزم ورغب فى زيارة الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج والطواف ببيت الله الحرام وزيارة مسجد المصطفى سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ، وحفظهم بكمال الأمن والسلامة ومزيد الاطمئنان والرفاهية ، وأن فى وضع المغارم على رؤوسهم وضرب المكوس على أموالهم صَدًّا والعياذ بالله عن سبيل الله وأمرًا مخالفًا لرضاء الله ومنافيًا لسيرة أهل الإسلام ، بل وارتكاب أمر شنيع واختيار وزر فظيع ، وعليه فقد أرسلنا أوامر بمنع التعرض والاعتداء عليهم بما يخالف الشرع مرارا ... لذا صدر الأمر الشريف هذا بالعمل به وبمقتضى الأوامر السابقة فى هذا الشأن "[٣] .

---

(1) Munir Atalar : Osmanli Devletinde Surre-I Humayun ve Surre Alaylari, Ankara , 1991, Diyanet -1 sleri Băşkanligi Yayinlari, S.10.

(٢) أحمد بن محمد الحموى : فضائل سلاطين بنى عثمان ، تحقيق د.محسن محمد سليم ، ص٢٧ ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٨٣م - دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

محمد نشرى : كتاب جهان نما " تاريخ نشرى " الناشر F.R.UNAT-M.A. ; Koymen, Ankara , 1949 , 1957 , TKK.Basimevi , C.II. , S. 678

عاشق باشا زادة : تواريخ آل عثمان ، إستانبول ، ١٣٣٢هـ ، مطبعة عامرة ، ص١٩٦ .

عبد القادر دده أوغلو : السلاطين العثمانيون ، ترجمة محمد جان ، ص٤١ ، دار سحنون للنشر ، تونس ١٩٩٢م .

(٣) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ١٠٤ - الحكم السلطانى رقم ٣٤٨ فى أواخر ذى الحجة سنة ١١٠٣هـ.

وكـــان السلطان سليم الأول قد رَتَّبَ صدقة سنوية من الحب توزع على سكان الحـــرمين الشريفين ، وهو أول من قام بكسوة الكعبة المشرفة من آل عثمان من ماله الخـــاص ، لذلك تمتع العثمانيون فى نفوس المسلمين عامة بمركز دينى متميز ، وخاضوا حروبهم باسم الإسلام ومن أجله ، يقول السلطان محمد الفاتح : " إن بلادنا هى بيت الإســـلام وســـيظل مصباحها مضيئاً بزيتٍ نستخرجه ويستخرجه خلفاؤنا من قلوب الكافرين "[١] .

مـــن هنا كان تصميم السلطان محـــمد الثانـــى - الفـــاتح - على فتح جزيرة رودس[٢] ، ولا ســـيما أنه أخضع آخر الإمارات اليونانية المستبدة فى المورة ، وجعل صـــربيا والبوسنة مقاطعتين عثمانيتين وفتح عدداً من جزر اليونان[٣] ، وكانت رودس معقلاً لفرسان القديس يوحنا[٤] ، والتى كانت الحرب بينها وبين مصر سجالاً ، حيث

---

(١) د. محمد بن عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن - وانتقال التوازن الدولى من البر إلى البحر ص٨٥-٨٧ الطبعة الأولى ١٣٩٩هـــ/١٩٧٩م ، دار التراث - القاهرة .

(٢) جزيرة صغيرة تقع بالقرب من شاطئ آسيا الصغرى فى جنوب شرق بحر إيجه ، وهى من أشهر الجزر فى بحـــر إيجـــه - وهو الجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، واسمها مشتق من لفظة " رودون " اليونانية ، ومعناها الورد ، وهى جزيرة طيبة الهواء ، حسنة التربة ، كثيرة الفواكه والأزهار ؛ انظر : محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د.إحسان حقى ، ص١٧٦-١٨٠ ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـــ/١٩٨٣م ، دار النفائس - بيروت .

(٣) بـــرنارد لويـــس : إستانبول وحضـــارة الخلافة الإسلامية ، ترجمة د.سيد رضوان على ، ص٤٩ ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـــ/١٩٨٢م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة .

(٤) يعـــرف فرســـان القـــديس يوحنا باســـم Hospitalers Of Saint John أو فرســـان رودس Kinights Of Rhodes ويعـــرفون عند العرب باسم الاسبارتية ، وهم طائفة دينية عسكرية من بقايـــا طوائف الحروب الصليبية ، وقد جمعت هذه الطائفة بين العبادة والفروسية والشدة والصلابة ، وكانت نشأتهم فى بيت المقدس فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ولما استولى المسلمون على عكا سنة ٦٩٠هـــ/١٢٩١م انتقل الاسبارتية إلى جزيرة قـــبرص ومنها إلى جزيرة رودس التى كانت بالنسبة لهـــم مكانـــاً جـــيداً لمواصلة الحروب الصليبية لقربها من البلاد الإســـلامية ، انظر : عبد الرحيم بن عـــبد الرحمن العباسى : منح رب البرية فى فتح رودس الأبية ، تحقيق د.فيصل بن عبد الله الكندرى ، ص ١٧-١٩ حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ١٤١٧هـــ/١٩٩٧م .

كانت تقوم بتهديد مباشر للبحار الإسلامية وطرق التجارة ، كما تقوم بتهديد الطريق البحرى للحجاج المسلمين ، فأرسل لها السلطان العثمانى عمارة بحرية مشحونة بمائة ألف مقاتل تحت قيادة القائد العثمانى ميشطس باشا ، وضرب الحصار عليها من ١٣ ربيع الأول سنة ٨٨٥ هـ/٢٣مايوسنة١٤٨٠م ولمدة ثلاثة أشهر ، حاول العثمانيون خلالها الاستيلاء على الجزيرة وتدمير قلاعها لكنهم لم يتمكنوا من ذلك ، فرفعوا الحصار عنها وعادت قواتهم دون تحقيق أية نتيجة تذكر[١] .

وكان القائد العثمانى طره خان أوغلو عمر بك قد شتت الجيش الذى حاول الدفاع عن البندقية فى منتصف سنة ٨٨٢ هـ / أوائل نوفمبر سنة ١٤٧٧م ، وأسَر قائده ، وعندئذ أجبر السلطان محمد الفاتح البندقية على دفع غرامات الحرب وتسليم خراج سنوى للدولة[٢] ، ويعود سبب تلك التحركات فى المقام الأول إلى أهمية مدينة البندقية التى تقع على البحر الأدرياتيكى والتى تعتبر من أهم الثغور التجارية التى تتحكم فى تلك البحار ، إضافة إلى أن جزيرتى قبرص وكريت الاستراتيجيتين كانتا تابعتين للبنادقة حينذاك وتهددان طريق الحجاج فى البحر الأبيض المتوسط دون شك .

ثم أخذ السلطان العثمانى محمد الثانى فى تجهيز قواته الحربية لفتح جزيرة قبرص ، حيث أمر بتجهيز تجريدة بحرية قوية لمهاجمة الجزيرة وفتحها ، لكن الأجل عاجله قبل أن يحقق هدفه الجهادى العظيم[٣] ، ومات – يرحمه الله – فى اليوم الرابع من ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ / ٣ مايو سنة ١٤٨١م[٤] .

---

(١) رزق الله منقريوش الصدفى: تاريخ دول الإسلام ، ج٣ ، ص١٠٨-١٠٩ ، مطبعة الهلال ، القاهرة، ١٣٣٦هـ/١٩٠٨م ،

أرغون : المصابيح المنيرة فى تواريخ القرون الأخيرة ، ترجمة حنفى هند بن إسماعيل ، ج١ ، ص٤١ ب.ت.ن.، ب.م.ن.

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ١٦٧-١٦٨ ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل إستانبول ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

روبير مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، المرجع السابق ، ج١ ، ص١٤٤ .

(٣) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابى ، ج٢ ، ص ٦١ ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار البصائر – دمشق .

(٤) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د.إحسان حقى ، المرجع السابق ، ص ١٧٦

أصبحت جزيرة رودس مصدر خطر على الدولة العثمانية ، فقد استقبلت الأمير جم الذى انشق على أخيه السلطان بايزيد الثانى ، ووصل الجزيرة فى منتصف سنة ٨٨٧ هـ / منتصف ١٤٨٢م وقد هدد السلطان العثمانى فرسان القديس يوحنا فى رودس ، ثم أرسل لهم وفوداً كى يسلموا له أخاه أو يضعوه تحت المراقبة على أن تدفع لهم الدولة العثمانية مبلغاً سنوياً لقاء ذلك ، أما السلطان سليم الأول بن بايزيد الثانى (٩١٨-٩٢٦هـ/١٥١٢-١٥٢٠م) الملقب بـ - ياووز - أى القاطع ، فقد كان حريصاً على فتح جزيرة رودس، لأنه يدرك أنها تشكل عقبة كؤودًا فى طريق الحاج البحرى العثمانى ، وطريق التجارة البحرية العثمانية ، بيد أن الأجل عاجله قبل أن يحقق أهدافه[1] ، لقد كانت جزيرة رودس مصدر قلق لتجارة العثمانيين بين إسطنبول وموانى البحر المتوسط كالإسكندرية وغيرها ، كما كانت مصدر تهديد للطريق البحرى الذى يربط عاصمة الدولة العثمانية بموانئها فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وهى بالتالى خطر على الحجاج والمسافرين من رعايا الدولة العثمانية ، فقد وصفها أحد المؤرخين المعاصرين بقوله : " ... جزيرة رودس التى أذهلت بِشَرِّها العقول وحيّرت الألباب ، ... كانت شَرَك الشَّرَك ، وحبالة الإفك ، ومقر الظلم والعدوان ومستودع الخزى والبهتان ، طالما سيقت إليها الزمر من المسلمين أسارى ، مكبلين فى الحديد فتراهم من الكرب سكارى ، وما هم بسكارى ، ويستعملون فى الأعمال الشاقة ، ويكلفون فوق الجهد والطاقة ، ويقتسمون أموالهم كالأنفال ، وهم ينظرون ولا يُغنون بحال ..."[2] .

من هنا طلب السلطان العثمانى سليمان الأول بن سليم الأول - القانونى - "٩٢٦-٩٧٤هـ/١٥٢٠-١٥٦٦م" من قادته متابعة أحوال هذه الجزيرة وإعطاء معلومات

---

(١) إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، ص٨٥ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م ، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت .

(٢) عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسى منح رب البرية فى فتح رودس الأبية ، تحقيق د.فيصل بن عبد الله الكندرى ص٩٣-٩٤ ، الحولية الثامنة عشر من حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

وافـــية عنها ، وحجم الأسطـــول فيها وأنواع السفن التى يملكها أهل هذه الجزيرة ، فجـــاءه الرد سريعاً ، والشرح وافياً عن هذه الجزيرة وغيرها من الجزر التابعة لحكومة البندقـــية ، فهناك خمس عشرة سفينة تابعة لجزيرة رودس ، وجزيرتان تابعتان للبندقية هـــما اســـكائوس واســـكيروس ، والأولى منهما عبارة عن قلعة حصينة ملاذاً لسفن اللصـــوص وقطاع الطرق من هؤلاء القوم ، وفى الجزيرتين أعداد كبيرة من اللصوص النصـــارى ، الذيـــن يهاجـــمون قرى المسلمين ويقطعون الطريق عليهم ، فيأخذون النســـاء والأطفال أسارى ويقتلون الرجال وينهبون الأموال ، والتعاون قائم ومعروف بين رودس وجزر البندقية لمحاربة المسلمين وإيقاع الضرر بـــهم فى كل وقت وحين ، وأن أعمال القرصنة والسلب والنهب تنطلق فى معظمها من جزيرة رودس ، وما يتبعها مـــن جـــزر ، وقـــد سبق لأهل هذه الجزيرة أن قبضوا على زوجة وأبناء أحد طائفة الســـباهية العثمانيين ، وحبسوهم لمدة عامين ، وأنه فى عام ٩٢٧هـــ خرجت ثلاث ســـفن مـــن قلعة رودس واستولت على سفينتين عثمانيتين كانتا تحت قيادة كل من عيسى ريس ، واسكندر ريس[١] .

ويؤكـــد أحد المؤرخين العثمانيين هذه الحقائق العلمية بقوله : " إن جزيرة رودس وقلاعهـــا العســـكرية كانـــت مأوًى ومقراً لطائفة الإفرنج ، وقراصنة البحر منهم ، وكانـــت قريبة من الممالك العثمانية ، وكان أهلها لا يتخلون عن إيصال الضرر لأهل الإســـلام ؛ خصوصاً التجار والحجاج والمسافرين الذين يذهبون إلى مصر بالسفن عن طـــريق البحر ، والحجاج الذين يذهبون إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج عـــن طـــريق البحر كذلك ، عندئذ يتعرض هؤلاء القوم من أهل رودس للمسافرين والحجاج من المسلمين ويترصدون لهم الطرق ، ويضربونهم بالمدافع ، وينهبون أموالهم ويـــأخذونهم أسارى ويضربون عليهم السلاسل والأغلال ، ويدخلونهم فى السجون ،

---

(١) د.فـــيل بن عبدالله الكندرى: تحقيق مخطوط " منح البرية فى فتح رودس الأبية " ، ص١٤٣-١٤٤ ، تـــرجمة للرســـالتين المنقولة عن : جلال زادة مصطفى جلبى : طبقات الممالك ودرجات المسالك ، مكتبة متحف طوب قابى سراى اسطنبول .

- Topkapi Sarayi Muzesi Kutuphanesi .

ويُعَرّضونهم لأصناف الإهانة والأذى ، فيقتلون الرجال ويستعبدون النساء والأطفال حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا فلما عُرِض الأمر على العتبة السلطانية بكل تفاصيله ودقائق أخباره ، أخذته الحمية الدينية وأعلن الحرب عليهم وتسخيرهم ورد شرورهم ، لأن ذلك من مهمات الدين والدولة ، فجهز لهم أسطولاً همايونياً فى فصل الشتاء طاعة لله ورسوله ... "[1] .

من هنا يتبين لنا أن جزيرة رودس كانت مصدر قلق لتجارة العثمانيين بين إسطنبول وموانى البحر المتوسط كالإسكندرية وغيرها ، كما كانت مصدر تهديد للطريق البحرى الذى يربط عاصمة الدولة العثمانية بموانئها فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ، ومصدر خطر عظيم للحجاج العثمانيين الذين يخرجون من عاصمة الدولة العثمانية - إسطنبول - إلى الحرمين الشريفين عن طريق البحر المتوسط وموانئه ومن ثم عن طريق البحر الأحمر وموانئه . هنا كان قرار السلطان سليمان الأول بن سليم الأول بتجهيز قوة بحرية قوامها ثلاثمائة مركب تحمل عشرة آلاف بحرى بقيادة القائد العثمانى بيرى باشا إضافة إلى مائتى ألف جندى عثمانى تحت قيادة مصطفى باشا صهر السلطان العثمانى ، وفُتِحَت الجزيرة بعد حرب ضروس وقتال عنيف ، شاركت فيه قوات من ولاية مصر العثمانية ، ورُفِعَ علم الدولة العثمانية فى وسط الجزيرة ، واستسلمت المدينة للسلطان العثمانى سليمان القانونى فى السابع من شهر صفر سنة ٩٢٩هـ/أواخر ديسمبر ١٥٢٢م ، ومنح السلطان العثمانى فرسان القديس يوحنا حرية الانسحاب من الجزيرة ، ومنح الأمان والحماية لأهل الجزيرة[2] .

---

(١) صولاق زادو : تاريخ صولاق زادة ، ص ٤٣٩ ، مطبعة محمود بك ، الآستانة ، ١٢٩٨هـ ، مكتبة أوقاف الديانة ، اسكودار ، إسطنبول .

(٢) د. محمد كمال الدسوقى : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص٥٦-٥٧ ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ط ١٩٧٦م

د.خلف بن دبلان الوذيناني: الفتح العثماني لجزيرة رودس ، ص ٦٢- ١٠٥ ، معهد البحوث وإحياء التراث الإسلامى - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

وســـارع السلطان العثمانى سليمان القانونى من مركز قيادته فى قلعة رودس بنقل أخبار هذا الفتح المبين إلى قاضى بورصة مؤكداً له حرصه الشديد والمستمر على نصرة الديـــن الإسلامى ، ورفع راية الدين وقمع وقلع آثار الكفرة والظالمين ، وفى مقدمتهم أهـــالى رودس الذين يقطعون طريق المسافرين بالبحر، ويسفكون دماء التجار، وشرح الســـلطان فى رســـالته تلـــك مراحل الاستعداد للمعركة وبدايتها وأسماء القادة الذين شاركوا ومهماتهم ، وما قام به السلطان نفسه فى هذه المعركة الحاسمة التـــى نصر الله فـــيها جند الإسلام ، وأن جزيرة رودس قد طُهرت من دنس أهل الكفر والضلال ، وتحولـــت معابد الأصنام والأوثان إلى مساجد لأهل الإيمان ، وأكد السلطان العثمانى سليمان القانونى فى رسالته هذه نجاح الدولة العثمانية وجيشها المظفر فى تأمين الطريق البحرى للحجاج القادمين من عاصمـــة الدولة العثمانية وأطرافها إلى الأماكن المقدسة فى مكـــة المكرمة والمدينة المنورة ، حيث قال : " ... وأضحت معابر بيت الله الحرام آمنة من عبث الكفرة الفجرة " ، وهو بذلك يقصد أهالى رودس والجزر المماثلة لها فى البحر المتوسط التى ينطلق منها اللصوص وقطاع الطرق لمهاجمة قوافل الحجيج البحرية الـــتى تجوب مياه البحر المتوسط فى طريقها إلى موانئ الدولة الإسلامية فى مصر والشام وعـــلى ســـواحل الـــبحر الأحمر ، وفى ختام هذه الرسالة السلطانية التى تعطى الدليل الواضـــح على مهمة هذه الحملة البحرية وأهداف هذا الفتح الإسلامى الكبير ، أشار الســـلطان سليمان القانونى إلى أن كافة الجزر وقلاعها قد أضيفت إلى أملاك الدولة ، وأن العفـــو والأمان قد مُنح لأهل هذه الجزر وتلك القلاع ، على أرواحهم وأموالهم وأولادهـــم وعـــيالهم ، وأن كافـــة أسرى المسلمين فى هذه الجزر قد أُطلق سراحهم وصاروا أحراراً بعد أن فك الله قيدهم وتحقق النصر لدولتهم الإسلامية، والمرجو إظهار الفرح والمسرات والدعاء لدوام الدولة والسلطنة[1] .

---

(1) Osmanli Devletinin - Merkez ve Bahriye Teşkilâti ismail Hakki Uzuncarsili-C.3.S.401-404 Ankara - 1988 .

أحمـــد فـــريدون بـــك : منشـــآت سلاطين ، ج١ ، ص٤٦٩-٤٧٤ ، نشـــر فى إسطنبول ، سنة ١٢٧٤هـــ/ ١٨٥٨م .

وهكـــذا بدأ العثمانيون فى حـــماية طريق الحج البحرى ، وبدأت قوافل التجارة العثمانـــية البحرية تشعر بشىء من الأمن والاطمئنان ، ولا سيما أن القرصنة فى البحر المتوســط لم تعــد تجد من يساندها بعد فتح جزيرة رودس التى كانت تشكل خطراً حقيقــياً فى الـــبحر ، وقـــد خضـــعت الجزر البحرية القريبة من رودس لنفوذ الدولة العثمانـــيـــة ، عـــندما علمت بفتح الجزيرة وضمها للدولة العثمانية ، وأصبحت تلك الجزر جـــميعها جزرًا عثمانية ، تقدم الولاء والطاعة للدولة[١] ، لكن فرسان القديس يوحـــنا غـــادروا جزيرة رودس بعد سقوطها فى أيدى العثمانيين ، واتخذوا من جزيرة مالطـــة[٢] قـــاعدة لهم ، حيث تنازل لهم ملك أسبانيا وألمانيا شارل الخامس – الشهير بشـــارلكان – عن هذه الجـــزيرة المهمة كى يشنوا منها هجماتهم البحرية وقرصنتهم القتالية ضد السفن التجارية العثمانية ، وضد سفن الحجاج المسلمين بين سواحل آسيا الصـــغرى وبـــلاد الشام ومصـــر[٣] ، وبالتالى صار موقف الدولة العثمانية فى تأمين طـــريق الحجـــاج البحرى من عاصمـــة الدولة العثمانية وأقاليمها عبر البحر المتوسط حَرِجٌ جداً، وبات التهديد واضحاً للسفن التجارية ولقوافل الحجاج البحرية ، وهو ما زاد من مهمات الدولة العثمانية فى هذا المجال .

لقد أصبح انضمام المشرق العربى إلى الدولة العثمانية يشكل عبئاً على قوتها البحرية كى تضمن سلامة المواصلات عبر البحر المتوسط من عاصمة الدولة – إسطنبول – إلى الموانـــئ المصـــرية وموانئ الشام ، وبالتالى الوصول إلى الحرمين الشريفين لأداء فريضة

---

(١) يوسف آصاف : المرجع السابق ، ص ٧٤-٧٥ .

(٢) جزيـــرة مالطة : جزيرة صغيرة فى البحر المتوسط بالقرب من سواحل إيطاليا ، وهى ذات أهمية بحرية كـــبيرة لموقعهـــا الاستراتيجى ، وقد تنازعتها الملوك والأمم على مر التاريخ ، وقد استقر بها فرسان القديس يوحنا إلى سنة ١٧٩٨م ، ثم احتلها نابليون بونابرت عند مجيئه إلى مصر ، وفى سنة ١٨٠٠م احتـــلها الإنجلـــيز ليسودوا بها ومن خلالها على البحر المتوسط ، وقد أيد مؤتمر ويانة سنة ١٨١٥م احتلالهم لها .

انظر : محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ، هامش ٢ ، ص٢٠٦ .

(3) Sydney Nettleton Fisher : The Middle East History , London , Second Edition , 1971 , PP.161-163

الحـــج ، وهـــذا ما أدركه السلاطين العثمانيون حينذاك ، وبالتالى كان تأمين الطريق الـــبحرى مـــن أولويـــاتهم ، وهو ما انعكس إيجابياً على تطـــور الأسطول البحرى العثمانى[١] .

لقـــد باتـــت موانـــئ الشام فى طرابلس وبيروت واللاذقية تمثل مركزاً استراتيجياً لاستقبال قوافل الحجاج وتأمين ســـلامتهم ، وبالتالى انتعاش التجارة وتطورها ، وهو ما ظهر واضحاً على مواردها الجمركية فى أواخر القرن العاشر الهجرى / أواخر القرن الســـادس عشـــر الميلادى[٢] ، حيث أقامت الدولة العثمانية فى عهد السلطان سليمان القانونى قلعة بقراص فى المضائق بين ميناء خليج الإسكندرونة والبحر لحماية المسافرين وقوافـــل الحجـــاج مـــن غارات القراصنة البحرية ، وقلعة أخرى على ساحل الخليج الشـــرقى فى بایاس ، وكلفت الحامية فيها بعدم مغادرتها إلا لأمر خطير ، لأهمية هذه القلعة وأهمية موقعها[٣] ، وزيادة فى سلامة الحجاج والمسافرين عبر البحر أمر السلطان العـــثمانى ســـليمان القانونى ببناء برج مراقبة فى داخل البحـــر مقابلاً للقلعة ، شبيهًا بالبرج المقام فى البحر عند مدخل البوسفور فى عاصمة الدولة إسطنبول[٤] .

وأمام هذه المتغيرات المتلاحقة فقد جمع السلطان سليمان القانونى مجلس الشورى فى إســـطنبول لأخذ رأيهم فى التهديدات التى تتعرض لها الدولة ، فأشـــار المجلس على السلطان بفتح جزيرة مالطة أولاً وقبل كل شىء ، لأن فرسان القديس يوحنا فيها هم أســـاس كـــل هذه الاضطرابات ، فهم يقومون بكل أنواع القرصنة فى حوض البحر الأبـــيض المتوســـط كمـــا كانوا يقومون بها فى جزيرة رودس ، عندئذ أمر السلطان العثمانى بتجهيز قوة بحرية أوصلها البعض إلى ٣٠٠ سفينة فيها من المعدات والأسلحة عشـــرون مدفعاً كبيراً ، و ١٢٠ مدفعاً صغيراً ، و ٢٠٠٠٠ قنطار من البارود ويقود

---

(١) روبير مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ... ، المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢١٧-٢١٨ .

(٢) الأرشـــيف العثمانى - إسطنبول - دفاتر المالية رقم ٢٠١١٥ - دفتر الأحكام المالية - صحيفة ٢٥٢ الفرمان الموجه فى ٢٢ ذى القعدة سنة ٩٨١هـــ إلى أمير أمراء الشام .

(٣) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثمانى - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ٧ - الفرمان رقم ٣٧٣ .

(٤) وثـــيقة عثمانية - الأرشيف العثمانى - إسطنبول - كبه جى - رقم ٢٣٠ - دفتر الرؤوس- صحيفة رقم ١٨٧- بتاريخ ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٨٣هـــ .

هذه القوة بياله باشا للأسطول البحرى ، والوزير مصطفى باشا لقيادة الجند ، بيد أن هذا الأسطول لم يحقق أية انتصارات رغم وصوله إلى الجزيرة ، لكنه فك الحصار عنها وعاد دون أن يفتحها[١] .

ولم يغفل العثمانيون عن سلامة البحر والمسافرين عليه فى أية اتفاقية أبرموها أو معاهدة وقعوها ، وهذا ما ظهر واضحاً فى معاهدة الامتيازات القنصلية التى وقعها السلطان العثمانى سليمان القانونى مع فرنسا فى منتصف سنة ٩٤٢هـ / أوائل سنة ١٥٣٦م ، حيث أكد البند الأول من بنود تلك المعاهدة على الالتزام بسلامة المسافرين على البحر وسلامة أموالهم فى أى مكان سواء داخل البحر أم على الثغور ، وأن تلتزم الأساطيل البحرية للدولتين بسلامة رعايا الدولة الأخرى على البحر وعدم إخضاعها للتفتيش أو التوقف ، وهو ما أشار إليه البند الحادى عشر من تلك المعاهدة [٢] ، وهذا ما يؤكد أهمية تأمين الطريق البحرى ، لا سيما وأنه أصبح شرياناً رئيسياً يربط عاصمة الدولة بأطرافها البعيدة فى الشام ومصر ، وبالتالى لابد أن يكون معبراً آمناً للحجاج والمسافرين والتجار ، وسلامته سلامة للدولة وهيبتها .

وقد برزت قوة العثمانيين البحرية فى البحر المتوسط بشكل واضح بعد انتصار أمير البحر " الأميرال " خير الدين بربروس[٣] وأسطوله البحرى المكون من ١٢٠

---

(١) خليل ساحلى أوغلى : من تاريخ الأقطار العربية فى العهد العثمانى ، ص٣٤١-٣٤٢ ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، إسطنبول ، ٢٠٠٠م .

(٢) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، المرجع السابق ، ص٢٢٣-٢٣٠ .

(٣) خير الدين باشا بربروسا - أو " بارب روس " أى ذى اللحية الصهباء ، من أسرة تركية مسلمة ، وهو من أصل يونانى - انتقل هو وأسرته من جزيرة مدللى - إحدى جزر اليونان التى فتحها محمد الثانى ، التحق بخدمة السلطان سليم الأول بعد فتحه مصر برتبة بكلربك - بيلربي- أى أمير ، حيث أمده بألفى جندى عثمانى مع مدفعيتهم وسمح لهم بزيادة عدد جنده فى البحر ومنحهم حقوق الإنكشارية وامتيازاتهم وقد عيّن أميراً للبحر سنة ١٥٣٣م ، وتوفى فى إسطنبول سنة ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م حيث دفن فى حى بشكطاش على شاطئ البوسفور فى المحل المعد لمرسى الدونانمات العثمانية، وقد ترك للدولة العثمانية أسطولاً بحرياً مجهزاً بأفضل أنواع الأسلحة والتجهيزات ، ورجال أكفاء من البحارة المهرة الذين تمرسوا على خوض المعارك البحرية ؛ انظر : محمد فريد : المرجع السابق ، ص ١٢٦-١٢٧ .

قطعة بحرية فى المعركة البحرية التى خاضها أمام بَرْوَزَة[١] فى أوائل سنة ٩٤٦ هـ / ٢٨ سبتمبر سنة ١٥٣٨م مع التحالف البحرى الأوروبى المؤلف من مائة وسبعين سفينة بحرية[٢] ، وكان اهتمام العثمانيين بالبحر قد ازداد منذ عهد السلطان محمد الفاتح حيث تقدمت البحرية العثمانية خطوات سريعة ، لأن الجهاد فى البحر كان يتساوى مع الجهاد فى البر إن لم يكن يَتفوَّق عليه وفق مقتضيات العصر التاريخية وانتقال التوازن الدولى من البر إلى البحر .

ولقد كان أسطول البندقية البحرى مصدر قلق للدولة العثمانية ، حيث عاث فى الشواطئ الجنوبية من آسيا الصغرى ، واحتل عدداً من المناطق الساحلية ، بيد أن انتصار البنادقة على العثمانيين فى معركة غاليبولى البحرية فى سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م ، جعل السلطان محمد الثانى فيما بعد يحفظ للعثمانيين مكانتهم البحرية ويحفظ لهم سمعتهم الدولية التى يستحقونها ، حين جهز حملة بحرية قوامها مائة وثمانون سفينة شراعية فى أواخر سنة ٨٦٠هـ/ربيع سنة ١٤٥٦م من غاليبولى إلى سواحل بحر إيجة ، للسيطرة عليها وبسط نفوذ الدولة العثمانية هناك وهو ما تحقق فعلاً[٣] ، ويشير أحد المؤرخين إلى هذا التفوق البحرى للعثمانيين فى تلك الفترة فى مقارنة رقمية يبين فيها أن الأسطول العثمانى كان يحتوى على ثلاثين سفينة حربية وقطع صغيرة بينما كان الأسطول البندقى متفوقاً على الأسطول العثمانى بمراحل ، بيد أن السلطان محمد الفاتح جعل الأسطول العثمانى يفوق الأسطول البندقى باثنين وتسعين قادرغاً[٤] ، وأكبر

---

(١) بروزة : مدينة تقع على رأس الخليج فى ألبانيا .

(٢) د . محمد حرب : العثمانيون فى التاريخ والحضارة : ص ٩٨-٩٩ ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م - دار القلم للطباعة والنشر - دمشق .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٤٦٨-٤٦٩ - نقله إلى العربية - نبيه أمين فارس منير البعلبكى ، الطبعة التاسعة ١٩٨١م ، دار العلم للملايين - بيروت .

(٤) قادرغا Kadirga- نوع من السفن فى الأسطول العثمانى ، وكان أكبرها - ولكل واحدة منها خمسة وعشرون مقعداً ، وتسعة وأربعون مجدافاً ، ويحرك المجداف الواحد أربعة أو خمسة أشخاص ، وكان طول الواحدة منها ١٦٥-١٦٨ قدماً وعرضها ٢١-٢٢ قدماً ، وهى تعمل بالمجداف والشراع ، وتحمل الواحدة منها مدفعية كبيرة وأربع وسطى وثمان صغيرة ، ويعمل فيها ١٩٦ مجدِّفاً و١٠٠ محارب و٣٥ بحاراً، بالإضافة إلى أصحاب المهن الأخرى ؛ انظر: تاريخ جودت: تحقيق د.عبد اللطيف الحميد ، ص٢٢٢-٢٢٣ ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

منها ١٦ طراداً ، ونحواً من ٤٠٠ سفينة نقل وإنزال ، ووضع المدافع على السفن ، ولم تسبق أية سفينة حربية بلا مدفع ، وقبيل وفاة السلطان محمد الفاتح كوَّن أسطولاً بحرياً يعادل ضعفى الأسطول البندقى - ٢٥٠ سفينة حرب و ٥٠٠ سفينة نقل ، وبالتالى تحققت لأول مرة فى التاريخ العثمانى قوة بحرية عثمانية ، تستحق الدهشة وتتفوق على الأساطيل الأوروبية باعتراف المؤرخين الأوروبيين أنفسهم[١] .

ومع تفوق العثمانيين فى المواد الخام لبناء أسطولهم البحرى ، حيث كانت الغابات الكثيفة على شواطئ البحر الأسود ، وكذلك وفرة المعادن اللازمة لبناء السفن ، إلا أن ازدياد الملاحين من النصارى الطليان أو اليونان أو البنادقة ، قلل من نسبة الولاء ، وزاد من ظاهرة الخيانة وعدم الولاء للدولة العثمانية[٢] ، وهذا بطبيعة الحال يقلل من الجانب الجهادى فى البحر على المدى البعيد ، وقد أُسندت إلى والى سنجق غاليبولى قيادة القوات البحرية فى بداية الأمر ، وعند تعيين خير الدين بربروسا أميراً للبحر كلف بالولاية على جزر بحر إيجة أيضاً[٣] ، لأن الدولة العثمانية أصبحت تدرك أهمية الولاء الدينى ، والإخلاص القيادى عند رجال الدولة فى المجال البحرى وحماية الثغور البحرية العثمانية من القراصنة وقطاع الطرق .

وقد أدرك السلطان علاء الدين ، سلطان الهند قوة وأهمية الأسطول العثمانى فى مواجهة الأساطيل الأوروبية ، وأهمية الاستعانة به ضد هذه الأساطيل فى البحار الإسلامية ، عندئذ أرسل إلى السلطان العثمانى سليمان القانونى فى سنة ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م ، يستنجد به ضد البرتغاليين الذين ظهروا فى مياه المحيط الهندى ، وبدأوا يهددون سواحل دولته ، ولا غرابة فى ذلك حيث إن الملك فرنسيس الأول ملك فرنسا قد استنجد هو الآخر بالسلطان سليمان القانونى ضد أعدائه الذين تغلبوا عليه فى مملكته ، وكان رده حاسماً وسريعاً ، وأشار فى رسالته إلى ملك فرنسا بأنه سلطان البحر الأبيض المتوسط والأسود وبلاد الروم إيلى والأناضول ... إلخ ، وهذا يؤكد

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ص ١٨٠ ، المرجع السابق .
(٢) د . محمد كمال الدسوقى : المرجع السابق ، ص ٦٩ .
(٣) كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٤٧١ .

شعور السلطان العثمانى بقوته العسكرية فى البر والبحر ، والتى برزت بصورة واضحة فى فتح الجزر الاستراتيجية فى البحر المتوسط ، حيث فُتحَت جزيرة جربة على الساحل التونسى ، وعندما تنمّرَ ملك أسبانيا وبدأ فى مضايقة المراكب العثمانية فى البحر المتوسط ، ودعم قراصنة جزيرة مالطة من فرسان القديس يوحنا الأورشليمى ، والذين باتوا يهددون الطريق البحرى للدولة العثمانية ، أعد السلطان العثمانى قوة بحرية هائلة قوامها مائة وواحد وثمانون مركباً تحت قيادة القبطان شابيلى وهاجمت جزيرة مالطة Malta فى البحر الأبيض المتوسط ، وضربت عليها الحصار فى أواخر سنة ٩٧٢هـ/ أواخر شهر مايو سنة ١٥٦٥م ، ودمرت حصونها وقلاعها واستمر الحصار ما يقرب من أربعة أشهر ، ثم رفع عنها الحصار لرداءة الجو وقرب فصل الشتاء وخوفاً على الجند العثمانى وقوته البحرية[١] ، بينما يذهب أحد المؤرخين فى معالجة تلك الحادثة إلى أن السبب فى فك الحصار عن جزيرة مالطة حينذاك هو استبسال فرسان القديس يوحنا فى الدفاع عن الجزيرة مما كلف العثمانيين خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد وهو ما أرغمهم على فك الحصار ، وعلل تلك المتغيرات باتساع رقعة الدولة العثمانية ، وعدم قدرتها على مجاراة الأوروبيين فى التطور التِّقنى ولا سيما فى المجال البحرى والسفن البحرية الحديثة التى تحمل المدافع والأسلحة المتقدمة[٢] .

لقد كان حرص السلاطين العثمانيين على البحر شديداً ، مما يعنى أن الجزر والثغور والسواحل البحرية لابد وأن تكون تحت السيادة العثمانية لتكون الطرق البحرية والساحلية آمنة ، وبالتالى يكون طريق الحاج وطرق التجارة فى مأمن عن القراصنة وقطاع الطرق .

من هذا المفهوم جهزت الدولة العثمانية حملة بحرية بقيادة والى مصر سليمان باشا ، وخرجت هذه الحملة من ميناء السويس لمواجهة البرتغاليين ، ومنعهم من التغلغل فى البحر الأحمر ، ومن ثم التوجه إلى المحيط الهندى لإغاثة سلطان الهند ضد هؤلاء الغزاة ، وقد مكنت تلك الحملة البحرية وما تبعها من حملات الدولة

---

(١) يوسف آصاف : المرجع السابق ، ص ٧٥-٧٩

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى ، ص١٠٢-١٠٣ ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م ، دار الشروق ، القاهرة .

العثمانيـــة من السيطرة على ميناء عدن ومدخل البحر الأحمر فى أوائل سنة ٩٤٥هـــ/ منتصف ســـنة ١٥٣٨م[١] .

إن الدولـــة العثمانية فى عهد السلاطين الأوائل ، كانت تمثل القوة الحقيقية للدولة الفاعلـــة فى مسار الأحداث ، فهى فى مرحلة بناء وصراع عسكرى وتوسع فى أملاك الدولة ، وتأكيد لمكتسباتها وحدودها وأمنها ، من هنا كان الحرص مستمراً على فتح الجـــزر التـــى تشكل تهديداً لأمن الدولة ورعاياها ، وهذا ما رأيناه فى حـــملة جزيرة قـــبرص[٢] ، تلـــك الجزيـــرة التى كانت تمثل مرتكزاً خطيراً فى خاصرة شرق البحر المتوسط، إذ هى تشكل وكراً للقرصنة ، وبلاءً مستمراً لطريق الحاج العثمانى وللتجارة العثمانـــية ولا ســـيما إذا كـــان الجو مكفهراً بين الآستانة والبندقية ، من هنا حرص السلطان العثمانى سليم الثانى بن سليمان الأول (٩٧٤-٩٨٢هـــ/١٥٦٦-١٥٧٤م) عـــلى إكمال مجد القوة العثمانية ، فساق عمارة بحرية مؤلفة من ثلاثمائة وستين مركباً تحمل مائة ألف جندى عثمانى ، حيث هاجمت الجزيرة وخاضت معها حرباً ضروساً ، انتهت باستسلام عاصمة الجزيرة نيقوسيا فى اوائل سنة ٩٧٨هـــ/أواخر سنة ١٥٧٠م، رغـــم مشـــاركة كـــثير من رجال البحرية البنادقة فى الدفاع عن الجزيرة لكن دون جـــدوى، وبعد فرض سيطرتهم الكاملة على الجزيرة ، سمح العثمانيون لمن يرغب من أهل الجزيرة بمغادرتها والانتقال إلى جزيرة كريت على السفن العثمانية، وتكفلوا بحماية أرواح وممتلكات سكان قبرص الذين لا يرغبون فى مغادرتها، ثم منح العثمانيون رئيس الأساقفة الأرثوذكس فى الجزيرة كافة الصلاحيات المدنية بالنسبة للجماعات الرومية ، وهـــو ما كان يفتقده فى عهد البنادقة[٣] ، ورغم أن بعض المؤرخين تطرفوا فى تعليل الأســـباب التى حملت السلطان سليم الثانى على فتح جزيرة قبرص ، وأنه فتحها نزولاً

---

(١) د. محمد البحراوى : المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٢) قـــبرص جزيـــرة صغيرة ذات موقع جغرافى استراتيجى فى شرق البحر الأبيض المتوسط بالقرب من سواحل الشام ومصر والأناضول حيث تبعد عن ساحل الأناضول ٧٠ كم وعن ساحل سوريا ١٠٠ كم وعن مصر ٣٨٠ كم ، انظر : محمد فريد : المرجع السابق هامش١ ، ص ٢٥٥

(٣) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ص٣٦٨-٣٧١ ، المرجع السابق .
د . محمد كمال الدسوقى: المرجع السابق ، ص ٧٩-٨٠ .

عـــلى رغبة أحد ندمائه اليهود[١] ، إلا أن الحقائق التاريخية والمعطيات العلمية فى تلك المـــرحلة ، ومنهجـــية مســـار الـــتاريخ ، ونامـــوس قيام الدول ، ترفض مثل تلك التحلـــيلات والتعليلات ، لأن العثمانيين كانوا حينذاك فى مرحلة جهاد دينىّ صرف ، ولهـــم أهـــداف سياسية ودينية تكاد تكون معروفة للمؤرخ المتخصص والمنصف ، أياً كـــان توجهـــه وموقعه من أهـــمية الحدث ، بينما تؤكد المصادر العثمانية القريبة من الحـــدث أن جزيـــرة قـــبرص حينذاك كانت تمثل خطراً محدقاً بمصالح الدولة العثمانية ومكتســـباتها وطرقها البحرية وثغورها المهمة ، وأن أهل قبرص قد اعترضوا الحجاج الذيـــن يذهـــبون إلى الحج عن طريق البحر ، وأنهم قد نهبوا أموالهم وقتلوهم وأسروا نســـاءهم وأطفالهم ، وتأميناً لحياة العباد وصيانةً للبلاد فقد قرر السلطان العثمانى بنية خالصـــة أن تُـــملأ الجزيرة بأهل الإسلام كما كان ، فأرسل لفتحها قائده المظفر لالا مصطفى باشا ومعه الأسطول العثمانى الذى حقق النصر وبلغ الغاية المنشودة[٢] .

ويؤكـــد بعـــض المؤرخـــين المعاصرين استناداً إلى الوثائق العثمانية أن القراصنة المســـيحيين المتمركزين فى جزيرة قبرص فى تلك الفترة وتحت حماية وسيطرة البنادقة ، كانوا كثيراً ما يقومون بالاعتداء على السفن التجارية العثمانية ، وعلى سفن ومراكب الحجاج العثمانيين المتجهين إلى الحرمين الشريفين عن طريق البحر ، وأن علاقة البندقية حينذاك مع الدولة العثمانية كانت تسير إلى الأسوأ ، من هنا صدرت فتوى شرعية من شـــيخ الإسلام فى الدولة العثمانية ، بأن جزيرة قبرص كانت فيما مضى بلداً مسلماً ، وهـــى الآن تهدد المسلمين وبلادهم ، فيجب غزوها وإعلان الحرب عليها ، وقد تحقق ذلك وفتحت الجزيرة وباتت بكلربكية عثمانية[٣] .

---

(١) يوسف آصاف : المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٢) كلشنى : كلشن معارف ، ص٥٦١ ، ط ١٢٠٢هـ ، إسطنبول – مكتبة أوقاف الديانة الإسلامية ، كتب خانة ، اسكودار ، إسطنبول .

(٣) أكمل الدين إحسان أوغلى وآخرون : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ترجمة صالح سعداوى، ج١ ص٤٤، ط ١٩٩٩م مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية – إستانبول .
؛ محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمـــان ؛ دراســـة وتحقيق د. يوســـف بن على بن رابـــع الثقفى ، ص١٦٣ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة .

لكـــن جزيرة مالطة أصبحت مصدر خطر حقيقى فى البحر المتوسط على التجارة العثمانـــية وعـــلى طريق الحاج البحرى القادم من عاصمة الدولة العثمانية إلى الحرمين الشـــريفين ، وهـــو مـــا ظهر فى تلك الحادثة التى ذكرها المؤرخون فى عهد السلطان العـــثمانى إبراهـــيم بن أحمد الأول (١٠٤٩-١٠٥٨هـــ/١٦٤٠-١٦٤٨م) حيث هاجم قراصنة مالطة قافلة الحاج العثمانى وفيها قزلر آغاسى[١] ، الذى كان فى طريقه إلى الحج ومعه جارية حسناء من جوارى القصر ومعها طفلها الرضيع ، وبينما هو فى الطـــريق هاجـــمـــه قراصنة مالطة فقتلوه وأخذوا الولد ظناً منهم أنه ابن السلطان ، وأخـــذوه معهم ونَصَّروه واشتهر عند الإفرنج بعد ذلك باسم " بدر أوتو ماتو - أى الأب العـــثمانى " ، وكانت هذه الحادثة سبباً مباشراً فى مهاجمة جزيرة كريت من قبل الأسطول العثمانى فى أواخر شهر ربيع الثانى سنة ١٠٥٥هـــ الموافق أواخر يونيو سنة ١٦٤٥م ، لأن هـــؤلاء القراصنة قد نزلوا جزيرة كريت بعد تلك الحادثة واستضافهم أهل الجزيرة وأحسنوا وفادتهم ، مما جعل السلطان العثمانى يزداد غيظاً ويأمر بغزو هذه الجـــزيرة وتأديب أهلها[٢] .

ولم يـــتوقف هـــؤلاء القراصنة فى جزيرة مالطة عن مهاجمة الطريق البحرى الذى يربط عاصمة الدولة العثمانية بولاياتها وأقاليمها فى المشرق العربى ، حيث هاجم هؤلاء القراصـــنة ســـفينة عثمانية أثناء عودتها من ميناء الإسكندرية فى الأراضى المصرية إلى عاصـــمة الدولـــة إسطنبول ، هنا أعلن السلطان العثمانى الحرب على جزيرة مالطة ،

---

(١) قزلر آغاسى Kizlaragasi ، تعنى المشرف على دائرة الحريم فى القصر السلطانى ويطلق عليه أيضاً " آغا دار السعادة " وكان على رأس خدم القصر ، ولأهمية منصبه كان يأتى بعد شيخ الإسلام مباشرة فى الترتيـــب الرسمى ، وكان يأتمر بأمره كل الأغاوات القائمين بالخدمة فى القصر السلطانى ، وكان الأغاوات القائمون على خدمة الحرمين الشريفين يأتمرون بأمره أيضاً فهو الرئيس المباشر لهم ، وكان يصـــحب الصـــرة إلى الحجاز سنوياً ، وهو مـــن مراكز القوى فى القصر السلطانى . انظر : المعجم الموســـوعى للمصـــطلحات العثمانية التاريخية ، للدكتور سهيل صابان ، ص١٨٠ ، ط ١٤٢١هـــ/ ٢٠٠٠م ، مكتبة الملك فهد الوطنية - بالرياض .

(٢) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، المرجع السابق ، ص٢٨٦ .

والجـــزر المناصرة لها والمتعاطفة معها ، واستمرت الحرب سجالاً حتى تمكن العثمانيون من بسط نفوذهم والسيطرة الكاملة على جزيرتـــى كريت ومالطة وعلى أهم القلاع والثغور فيها[١] .

فى تلـــك المـــرحلة الحاســـــمة ، وفى ضوء الانتصارات البحرية المتتابعة بدأت الأساطيل العثمانية فى مهاجـــمة بعض الجزر المهمة فى البحر المتوســـط مثل جزيرتى كريـــت وزانطـــة[٢] ، ذات الموقع الاستراتيجى ، هنا بدأ تجمع القوى النصرانية ضد الدولة العثمانية ، والتقى الجانبان فى معركة بحرية حاسمة فى خليج ليبانتو Lepanto فى ١٧ جمـــادى الأولى سنة ٩٧٩هـــ/ ٧ أكتوبر سنة ١٥٧١م وتفوق التحالف المسيحى على القوات العثمانية ، التى فقدت سفنها وسلاحها وأُسِرَ عدد من رجالـــها ، وتعتبر هذه المعركة من أولى المعارك البحرية التى خسرتـــها الدولـــة العثمانيـــة ، حيث غنم النصـــارى ١٣٠ سفينة عثمانية ، وأحرقوا وأغرقوا ٩٤ سفينة ، وغنموا ٣٠٠ مدفع ، وأســـروا ثلاثـــين ألفًـــا من الجند العثمانى ، لكن الدولة العثمانية سارعت فى تضميد جراحها واستعادت مجدها وبدأت فى بناء أسطولها البحرى[٣] .

إن جهـــود الدولة العثمانية لفتح الجزر الاستراتيجية فى البحر المتوسط لم تتوقف لأنـــهـــا تـــنطلق من منطلق قيام الدولة العثمانية ذاتها ، فهى تهدف لحماية الأماكن المقدسة وتأمين الطرق المؤدية إليها ، وقد استمرت الحملات البحرية لفتح الجزر المهمة

---

(١) أكمل الدين إحسان أوغلى وآخرون : الدولة العثمانية ... ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٥٦-٥٧ .
خليل ســـاحلى أوغلى : من تاريخ الأقطار العربية فى العهد العثمانى ، ص٣٣٣ ، المرجع السابق .

(٢) - جزيـــرة كـــريت تقع فى الشمال الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، فهى ذات موقع بحرى مهم ، حيـــث تـــتحكـــم فى مضيق الدردنيل ، فتحها العرب ، ثم استرجعها الروم سنة ٩٦١م ، وفى سنة ١٢٠٤م أخذها البنادقة ، ثم فتحهـــا العثمانيون بعد ذلك .
- أما جزيرة زانطة ، فهى جزيرة تقع بالقرب من مدخل خليج كورنتـــوس إلى الغرب من الجـــزء الســـفلى مـــن الـــيونـــان ، انظـــر : محمد فريد : المرجع السابق ، هامش ٤ ، ص ٢٣٤-٢٣٥ ، وهامش ٣ ، ص ٢٠٢-٢٠٣

(٣) د . محمد كمال الدسوقى : المرجع السابق ، ص٨١-٨٢ ، وليبانتو : ميناء يقع فى غربى اليونان عند مضيق يعرف بمضيق ليبانتو فى بداية خليج كورنتوس شمال مورة .

فى البحر الأبيض المتوسط والتى تشكل لسبب أو لآخر خطراً على طريق الحاج العثمانى من عاصمة الدولة إسطنبول إلى الأماكن المقدسة ، حيث رأينا البحرية العثمانية تضرب الحصار على جزيرة مالطة وتؤدب قراصنتها ، ثم ترفع الحصار الذى استمر أربعة أشهر ، بعد أن تحققت الغاية منه ، ولكى لا يتأثر رجال البحرية العثمانية من تقلبات فصل الشتاء القارس ، ولاسيما أن المهمة قد نجحت كما خُطِّط لها ، وحين اعترضت مراكب رهبان مالطة قافلة بحرية عثمانية فى طريقها إلى الحج ، وقتلوا الرجال وسبوا الغلمان والنساء ، وقاموا بتنصير الغلمان ، كان غضب السلطان العثمانى قوياً ومؤثراً ، فأمر بتجهيز عمارة بحرية قوية لفتح جزيرة كريت ذات الموقع الجغرافى والحربى الفريد فى البحر المتوسط ، ولتوسطها فى الطريق بين الآستانة والأماكن المقدسة ، وضُرِب الحصار على أهم ثغور الجزيرة وتم فتح أهم مدنها ، ثم ضُرِب الحصار على عاصمة الجزيرة ، وبعد صراع طويل دام نحو خمسة وعشرين عاماً حول هذه الجزيرة ومدنها وقلاعها الحصينة أعلنت فيها العصيان ضد الدولة العثمانية ، وسعت إلى إغلاق مضيق الدردنيل فى وجه البواخر العثمانية كى لا تتجه إلى عاصمة الدولة ولا تخرج منها ، مما يعنى أن طريق الحاج البحرى وطرق التجارة البحرية أصبحت معرضة للأخطار ، إن لم تتمكن الدولة العثمانية من ضم هذه الجزيرة ومدنها ، وبالفعل رجحت الكفة لصالح البحرية العثمانية فتنازلت جمهورية البندقية عن جزيرة كريت للدولة العثمانية عدا ثلاث قرى فى شمال الجزيرة هى - قره بوزا وسودا وسبينالونجا[1] ، إن هذا الفتح العثمانى الكبير لجزيرة كريت وقلاعها الشهيرة، بعد تلك الحادثة الغريبة التى قام بها قراصنة ورهبان مالطة ضد قافلة الحجاج العثمانيين ، يُعطى الدليل الواضح والصريح على سلامة المنهج الذى تسير عليه الدولة العثمانية فى فتوحاتها لتلك الجزر التى تحتل موقعاً إستراتيجياً على طريق الحاج العثمانى ، وطريق التجارة العثمانية فى البحر المتوسط وإلى عاصمة الدولة إسطنبول .

---

(١) محمد فريد بك : المرجع السابق، الصفحات ٢٤٩ ،٢٨٦- ٢٨٨ ، ٢٩٨ .

يوسف آصاف : المرجع السابق ، ص ١١١ - ١١٤ .

أحمد بن محمد الحموى : فضائل سلاطين بنى عثمان ، ص٤٩-٥٠ ، المصدر السابق .

لقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى فى ماهية هذه الفتوحات ، بيد أن الرأى الأرجح والمنطلق من القراءة التاريخية المتزنة والمتوازنة ، يرى أن تلك الفتوحات كان مرتكزها الأساسى تأمين الطريق البحرى من عاصمة الدولة - إسطنبول - إلى الأماكن المقدسة فى مكـــة المكرمة والمدينة المنورة ، ولاسيمـــا أن موانئ البحر الأحمر والموانئ الشرقية من البحر المتوسط - أى سواحل الشام والأناضول- وكذلك الموانئ المصرية ، وكل هـــذه المراكـــز الـــبحرية أصبحت تحت سيطرة ونفوذ الدولة العثمانيـــة ، فهذا هو الســـلطان مراد الثالث بن سليم الثانى (٩٨٢-١٠٠٣هـــ/١٥٧٤-١٥٩٥م) يبعث بأوامـــره القوية إلى قائد الأسطول العثمانى فى البحر المتوسط : " ... وإننى آمركم بأن تراقـــبوا طريق الســـفن بين قبرص والإسكندرية والطريق إلى الجزائر ، وألا تسمحوا للكفـــار أن يعتدوا على السفن المصريـــة أو أيـــة سفن أو أراضٍ فى ممالكى ، وعليك أن تبذل مساعيك بحيث تعود أية سفينة تخرج إلى البحر سالمة آمنة "[1] ، ولعل تفاعل الدولة العثمانية مع هجمات البرتغاليين البحرية على مداخل البحر الأحـــمر الجنوبية ، وانتقال القوة البحرية العثمانية إلى هناك لمـــجابـــهة هذا الخطر البحرى الجديد ، هو تأكـــيد لمـــا ذهب إليه البحث من أن الدولة العثمانية كانت حريصة دائماً على تأمين الطـــرق البحرية التى يسلكها الحجاج إلى الأماكن المقدسة ، وإذا كان المؤرخـــون قد ذهـــبوا إلى أن الـــتوازن الدولى قد انتقل من البر إلى البحر فى القرن الســـادس عشر الميلادى ، فإن حماية الثغور الإسلامية ، وطريق الحاج البحرى من قِبَل الدولة العثمانية فى تلـــك المرحلة التاريخية الحاسمة ، هى بلا شك حقائق لا تقبل الجدل ، لأن التوازن الدولى يعكس صورة التحولات التاريخية ويعطى الدليل عليها .

إن أواخر القرن السابع عشر الميلادى كان يمثل نقطة حاسمة فى قوة الدولة العثمانية البحرية ، رغم أن الدولة فى تلك المرحلة كانت فى حروب مع النمسا والبندقية وبعض القـــوى الأوروبية البارزة والمستعدة لمواجهتها ، بيد أن مشاكل الدولة العثمانية بدأت فى الازديـــاد مـــع روســـيا مـــع مطلع القرن الثامن عشر الميلادى ، وهو ما حدَّ من

---

(١) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثمانى - اسطنبول - دفتر المهمة رقم ٣١ - حكم سلطانى برقم ١٩٧ فى شهر رجب سنة ٩٨٥هـــ/ أكتوبر ١٥٧٧م .

الفتوحات البحرية فى البحر المتوسط، وقلّل من أهميتها خاصة فى شرق البحر المتوسط، ومع هذا كله ومع الضعف الذى بدأ يظهر على الدولة بشكلها العام إلا أن منهجية الحفاظ على طريق الحاج البحرى من عاصمة الدولة - إسطنبول - إلى الأماكن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة لم تتغير ، والوثائق العثمانية المحفوظة فى أرشيف رئاسة مجلس الوزراء العثمانى فى إسطنبول تؤكد هذه الحقيقة العلمية التى ذهب إليها البحث ، فهذا هو الحكم رقم ٧٩١ فى أوائل شهر رجب سنة ١١٠٤هـ والموجه إلى أمير الحاج المصرى إبراهيم بك من السلطان العثمانى ، يقول : " اعلم أيها الأمير المومى إليه بأن ذهاب وإياب من شد عزيمته لأداء فريضة الحج من الحجاج ذوى الابتهاج بالأمن والسلامة وحفظهم وحراستهم وحمايتهم وصيانتهم على ما ينبغى أمر معظم من أمور مصالح المُلْك والملة ومن مهام اشتغال الدولة والسلطنة ، وقد أحيل على عاتقك وفوض إليك حماية وصيانة الحجاج ذوى الابتهاج الناهضين من مصر القاهرة ، فكن على بصيرة وعلى يقظة وأمّن مسالك الحج بعون الله واسهر على حفظ الحجاج وصيانتهم فلا يلحق بفرد منهم أذى وابذل قصارى جهدك على ذهابهم وقفولهم برفاهية حال وفراغ بال "[1] .

وفى حكم آخر إلى والى مصر من السلطان العثمانى تأكيد واضح على أهمية تأمين الأسلحة والمعدات والذخيرة العسكرية اللازمة لتأمين السفن القادمة والمغادرة من وإلى مينائى ينبع وجدة ، لا سيما أن هذه السفن تنقل الحجاج القادمين لأداء فريضة الحج[2] ، ليس هذا فحسب وإنما كان هناك اهتمام من الدولة العثمانية بتأمين أفضل المراكب للحجاج القادمين من عاصمة الدولة ، ففى الأمر السلطانى الصادر إلى قائم مقام الآستانة وإلى القبودان باشا توجيه صريح بتجهيز السفن الكبيرة والجديدة الموجودة فى موانئ العاصمة إسطنبول وحتى لو لم تكن سفنا عثمانية خاصة أو أميرية ،

---

(١) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثمانى - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ١٠٤ - حكم سلطانى برقم ٧٩١ أوائل شهر رجب سنة ١١٠٤هـ / أوائل سنة ١٦٩٣م .

(٢) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثمانى - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ١٨٠- حكم سلطانى برقم ٦٨٢ فى أواخر ربيع الثانى سنة ١١٠٩هـ .

واستئجارها للحجاج وإرسال قوة عسكرية لحمايتها حتى تصل إلى الموانئ المصرية فى أمن وأمان لأداء فريضة الحج وزيارة مسجد المصطفى ﷺ[١] .

من هنا يتأكد لنا أن الدولة العثمانية لم تَغْفُلَ فى أى يوم من الأيام عن تأمين طريق الحاج البحرى من عاصمة الدولة - إسطنبول - أو أى ميناء من موانئها الكثيرة إلى الحرمين الشريفين ، وكان ذلك هو ديدنها وتعتبره فخراً لها حتى فى مراحلها التاريخية المتأخرة لم تَغْفل عنه ، فهى تطلب من قائم مقام ينبع البحر على شاطئ البحر الأحمر أن يبذل قصارى جهده وكل طاقته لحماية الحجاج القادمين إلى الميناء ، فهذا العمل من واجبات الدولة المقدسة[٢] ، وفى نفس الوقت تؤكد على والى الحجاز أن يُكَلِّف قادة السفن العثمانية فى البحر الأحمر بتعليق العلم العثمانى ذى الهلال والنجم عند سفرها وقدومها لأهمية أمنها وأمن القادمين عليها من الحجاج المسلمين[٣] .

* * *

(١) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثمانى - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ١١٠ - حكم سلطانى برقم ٢٥٤ فى أواخر جمادى الآخرة سنة ١١١٠هـ .

(٢) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثمانى - إسطنبول - دفتر العينيات رقم ٨٧٣ صفحة ١٤٤ فى ٤ صفر سنة ١٢٩٠هـ

(٢) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثمانى - إسطنبول - دفتر العينيات رقم ٨٧٦ صفحة ١٢ فى ١٠ ربيع الأول سنة ١٢٩٢هـ .

الوثائق والمصادر والمراجع

(أ) ـ الوثائق :

١- الأرشيف العثمانى - اسطنبول - دفاتر المالية رقم ٢٠١١٥ - دفتر الأحكام المالية .

٢- الأرشيف العثمانى - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ٧ - الفرمان رقم ٣٧٣ .

٣- الأرشيف العثمانى - اسطنبول - كبه جى - رقم ٢٣٠ - دفتر الرؤوس- صحيفة رقم ١٨٧ .

٤- الأرشيف العثمانى - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ٣١ - الحكم السلطانى رقم ١٩٧ .

٥- الأرشيف العثمانى - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ١٠٤ - الحكم السلطانى رقم ٣٤٨ .

٦- الأرشيف العثمانى - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ١٠٤ - الحكم السلطانى رقم ٧٩١ .

٧- الأرشيف العثمانى - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ١١٠ - الحكم السلطانى رقم ٢٥٤ .

٨- الأرشيف العثمانى - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ١٨٠- الحكم السلطانى رقم ٦٨٢ .

٩- الأرشيف العثمانى - اسطنبول - دفاتر العينيات - رقم ٨٧٣ .

١٠ـ الأرشيف العثمانى ـ اسطنبول ـ دفاتر العينيات ـ رقم ٨٧٦

(ب) ـ المصادر والمراجع العربية والمعربة :

١- إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت .

٢- أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد بن حنبل .

٣- أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ؛ تحقيق د.عبداللطيف الحميد ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

٤- السيد أحمد زينى دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ، ط ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م نشر مؤسسة الحلبى وشركاه - القاهرة .

٥- أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م دار الشروق ، القاهرة .

٦- أحمد فريدون بك : منشآت سلاطين ، نُشر فى إسطنبول ، سنة ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٨م .

٧- أحمد بن محمد الحموى :فضائل سلاطين بنى عثمان ، تحقيق د.محسن محمد سليم ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م - دار الكتاب الجامعى ، القاهرة .

٨- أرغون : المصابيح المنيرة فى تواريخ القرون الأخيرة، ترجمة حنفى هند بن إسماعيل ب.ت.ن.

٩- أكمل الدين إحسان أوغلى وآخـــرون : الدولة العثمانية تاريخ وحضـــارة ، ترجمة صالح سعداوى ، ط ١٩٩٩م مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية - إستانبول .

١٠- بـــرنـــارد لويس : إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، ترجـــمة د.سيد رضوان على ، الطـــبعة الثانـــية ، ١٤٠٢هـــ/١٩٨٢م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

١١- جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى : حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـــ/١٩٩٠م ، منشورات عالم الكتاب .

١٢- خلف بن دبلان الوذينانى : الفتح العثمانى لجزيرة رودس ، معـــهد البحو ث وإحياء التراث الإسلامى جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤١٨هـــ/١٩٩٧م .

١٣- خلـــيل ســـاحلى أوغلـــى : من تاريخ الأقطار العربية فى العهد العثمانى ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، إسطنبول ، ٢٠٠٠م .

١٤- رزق الله منقريوش الصدفـــى : تاريخ دول الإسلام ، مطبعة الهلال ، القاهرة ، ١٣٣٦هـــ/ ١٩٠٨م .

١٥- روبـــير مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجـــمة بشير السباعى ، ط١، ١٩٩٣م ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة .

١٦- زيـــاد أبو غنيمة : جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك ، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـــ/ ١٩٨٣م ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .

١٧- زيـــن نـــور الدين زين : الصراع الدولى فى الشرق الأوسط وولادة دولتى سوريا ولبنان ، الطبـــعة الثانـــية ، دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٧م .

١٨- ســـهيـــل صابـــان : المعجم الموسوعى للمصطلحات العثمانية التاريخية ، ط ١٤٢١هـــ/ ٢٠٠٠م ، مكتبة الملك فهد الوطنية - بالرياض .

١٩- صـــولاق زادة : تاريخ صولاق زادة ، مطبعة محمود بك ، الآستانة ، ١٢٩٨هـــ ، مكتبة أوقاف الديانة ، إسكودار ، إسطنبول .

٢٠- عاشق باشـــا زاده : تـــواريخ آل عثمان ، إستانبول ، ١٣٣٢هـــ ، مطبعة عامرة .

٢١- عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، دار الجيل ، بيروت ، د.ت.ن.

٢٢- عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسى : منح رب البرية فى فتح رودس الأبية ، تحقيق د.فيصل بن عبد الله الكندرى ، الحولية الثامنة عشرة من حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

٢٣- عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠م .

٢٤- عبدالقادر دده أوغلو : السلاطين العثمانيون ، ترجمة محمد جان ، دار سحنون للنشر ، تونس ١٩٩٢م .

٢٥- فيصل بن عبدالله الكندرى : تحقيق مخطوط " منح البرية فى فتح رودس الأبية " ، ترجمة للرسالتين المنقولة عن : جلال زادة مصطفى جلبى : طبقات الممالك ودرجات المسالك ، مكتبة متحف طوب قابى سراى إسطنبول .

٢٦- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية - نبيه أمين فارس منير البعلبكى ، الطبعة التاسعة ١٩٨١م ، دار العلم للملايين - بيروت .

٢٧- كلشنى : كلشن معارف ، ط ١٢٠٢هـ ، إسطنبول - مكتبة أوقاف الديانة الإسلامية ، كتب خانة ، اسكودار ، إسطنبول .

٢٨- محمد بن أحمد بن إياس الحنفى : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

٢٩- محمد أمين المكى : الآثار المبرورة والمشكورة لسلاطين آل عثمان فى الحرمين الشريفين ، إستانبول ، مطبعة عثمانية ، ١٣١٨هـ .

٣٠- محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى : نصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان ، دراسة وتحقيق د. يوسف بن على بن رابع الثقفى ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة .

٣١- محمد حرب : العثمانيون فى التاريخ والحضارة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م - دار القلم للطباعة والنشر - دمشق .

٣٢- محمد بن عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن - وانتقال التوازن الدولى من البر إلى البحر الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، دار التراث - القاهرة .

٣٣- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د.إحسان حقى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م دار النفائس - بيروت .

٣٤- محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان ، وقدم له د. أحمد عزت عبد الكريم ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ت.ن.

٣٥- محمد كمال الدسوقى : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ط ١٩٧٦م.

٣٦- محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح ، منشورات الفاخرية بالرياض ، ب.ت.ن.

٣٧- يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل إستانبول ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

٣٨- يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابى ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار البصائر - دمشق .

(ج) - المراجع الغير عربية :

1- F.R.UNAT-M.A. محمد نشرى : جهان نما " تاريخ نشرى "
" Koymen, Ankara , 1949 , 1957 , TKK.Basimevi , C.II.

2- Munir Atalar : Osmanli Devletinde Surre-I Humayun ve Surre Alaylari, Ankara , 1991, Diyanet -1 sleri Bāşkanligi Yayinlari

3- Osmanli Devletinin-Merkez ve Bahriye Teşkilâti ismail Hakki Uzuncarsili-C.3.Ankara - 1988

4- Sydney Nettleton Fisher : The Middle East History , London , **Second Edition , 1971**